من تراب الطريق (٤٥٧)

الدكتور عبد الغفار مكاوي(*) وقراءته في جذور الاستبداد

عرفت الأستاذ الدكتور عبد الغفار مكاوى عالمًا أديبًا متميزًا ـ فى الندوة الأسبوعية للصديق العزيز الأديب الراحل فاروق خورشيد .. افتقدنا حضوره الندوة فى السنوات الأخيرة السابقة على رحيل فاروق خورشيد ، ولكن لم تنقطع اهتماماتنا بمتابعة كتاباته ومؤلفاته ومقالاته فى الدوريات الأدبية والثقافية ..

أحتفظ فى مكتبتى ضمن مؤلفاته بكتابه الرائع : «جذور الاستبداد ـ قراءة فى أدب قديم» .. أصدَرَتْه له سلسلة عالم المعرفة (الكويتية) ـ بالعدد / ١٩٢ فى ديسمبر ١٩٩٤ .. وهو كتاب يصادف عنوانه وموضوعه ـ يصادفان ما تفشى فى زماننا من استبداد لا بد أن له جذورًا فى السابقين .. ويضم الكتاب نصوصًا كاملة لما يعرف بأدب الحكمة البابلية ، وهى التى اكتشف معظمها فى مكتبة الملك الآشورى «آشور بانيبال» .. واستطاع الأثريون وعلماء اللغتين السومرية والأكدية ـ أن يفكوا رموزها وأسرارها بعد جهود مضنية ورائعة ، هى التى أتاحت نشر أصولها وترجماتها إلى اللغات الحديثة .

يبدأ الدكتور عبد الغفار مكاوى كتابه الضافى بتمهيد عام يحدد فيه مفاهيم الحكمة ، والتاريخ ، والأدب ، والإبداع والأسطورة والدين والطاعة وغيرها ـ فى الحضارة القديمة فى وادى الرافدين .. هذا المدخل للحكمة البابلية ضرورى جدًّا لكشف الأعماق الدفينة لأدب الحكمة البابلية ،

(*) المال ١٤/ ٦/ ٢٠١٠ .

والتى تراكمت عليها «طبقات» متتالية فى تاريخ طويل لنظم الحكم والقيم والمعرفة عبر نحو ثلاثة آلاف سنة . فلا تزال جذور «اللا حرية» والظلم والقهر التى كابدها القدماء ـ تلقى بظلالها وأصدائها المعتمة فيما ينبعث فى تلك النصوص من أنين وصرخات !

وإذا كان الكتاب كما قيل فى تقديمه ـ محاولة لقراءة هذه النصوص القديمة التى تعبر من داخلها عن جذور الاستبداد فى إطار سياقاتها التاريخية المختلفة ، وتهتدى فى التعرف عليها ـ تعاطفًا أو نقدًا ـ بقراءة تهتدى بفلسفة التفسير أو التأويل المعاصرة ومناهجها ، بحيث تتحول القراءة إلى تجربة حيّة يتعانق فيها الحاضر والماضى ، وينصهر أفقُ القارئ المعاصر ـ بقدر الطاقة ـ مع أفق الكاتب أو الكتّاب القدامى المجهولين ، فإن الذى يجب الالتفات إليه أن حضاراتنا القديمة ليست هى «حضارات الموت والظلام» التى انقضت ، وإنما هى تراث عريق وثقيل لا تزال جوانبه السلبية فعّالة فى تكويننا وفى سلوكنا الحاضر ، ويتوجب علينا أن نستوعبه وننقده لكى نتجاوزه بإبداع تراثٍ جديد أكثر حرية وعـدلًا وأملًا ، وأقل بؤسًا وظلمًا واستبدادًا .

احتوى كتاب الدكتور عبد الغفار مكاوى ، بعد التمهيد العام والمدخل إلى الحكمة البابلية ، واللذين استغرقا (١٦٥) صفحة ، على أربعة فصول .. الأول بعنوان : «لأمتدحن رب الحكمة» (لدلول ـ بيل ـ نيميقى) ، وفيه قصيدة مكونة من (٢٧) مقطوعة : «المعذب والصديق» .. وهى قصيدة حوارية بين معذب وصديقه الحكيم عُرِفت بأنها «التيوديسية» البابلية ، والمراد بها تبرير الشر والألم والظلم فى هذا الوجود بالحكمة الخافية على عقول البشر !! أما الشق الثانى فى هذا الفصل فهو بعنوان «حوار السيد والعبد» .. ومضمون

هذا النص المذهل المحير المنحدر إلينا من نحو ألف عام قبل الميلاد ، يكشف الغطاء عن القضية الأزلية : ماذا يفعل الإنسان حين يجد أن القيم قد فقدت قيمتها ، ويهوله الاضطراب والخلل الذى اجتاح كل شىء ، ويفزعه خلو الساحة لعقارب الخسة والغدر وكلاب السلب والنهب ! ربما لم يقصد الكاتب المجهول هذه الأفكار ، ولكن قراءة النص كفيلة باستخراج هذه المعانى من خلال الحوار بين السيد الذى استولى عليه الملل ، والعبد المسكين الذى لا يسعه إلاّ تنفيذ ما يريده سيده فى جميع الأحوال !

والفصل الثانى لكتاب جذور الاستبداد ، ينطوى على جزءين : أولهما «نصائح ونواهٍ» ، عرضت من خلال إرشادات «شوروباك » لابنه «زيوسودرا» ، و«نصائح حكيمة» عبارة عن مواعظ أخلاقية تتألف من نحو (١٦٠) سطرا ، ثم «نصائح متشائم» وجدت مدونة على لوح صغير ويبدو أنها مقتطفة من عمل أدبى أكبر ، وهى على هيئة خطاب موجه يتضمن النصائح التى يرى الدكتور عبد الغفار مكاوى أنها لا توحى بالتشاؤم كما يستفاد من صفة المؤلف ، آية ذلك أن النص يؤكد «الفناء» أو «التناهى» كما يقول فلاسفة الوجود المعاصرون ، وأن ذلك لا يدل على التشاؤم بقدر ما يكشف عن تبصر هذا الحكيم البابلى القديم ، يتلو ذلك : «نصح ونذير الأمير» ، وهى نصائح مكتوبة بالأسلوب الذى كانت تُكتب به نبوءات التحذير مما سيقع فى المستقبل . أما الجزء الثانى لهذا الفصل الثانى للكتاب ، فبعنوان : «تراتيل للآلهة» .. احتوى على «ترتيلة للإله نيتورتا» ، و «ترتيلة للإله شمس» .

أما الفصل الثالث ، فهو عن مناظرات وحكايات خرافية على لسان الحيوان ، وهو يؤكد بإجمال كيف احتفظت هذه الحكايات على لسان الحيوان بشعبيتها فى الشرق منذ القدم .. ولعل أشهر الأمثلة على ذلك كتاب «كليلة ودمنة » الذى ترجمه عبد الله بن المقفع عن «بيدبا» الفيلسوف الهندى .. أما حكايات النصوص البابلية القديمة فعن : الطرفاء والنخلة (الطرفاء نوع من الشجر وبها سُمّى طرفة ابن العبد) ، وحكاية الصفصافة ، والحكاية الشعرية عن نيسابا إلهة الغلة ، والثور والحصان ، وحكاية الثعلب . أما الفصل الرابع والأخير فهو لحكم وأقوال سائرة وأمثال شعبية .

لا يخفى الدكتور عبد الغفار مكاوى ما حداه إلى تقديم هذا الكتاب الذى أنجزه عام ١٩٩٠ .. فكل من جرب مرارة المحنة لا بد أن يكون قد راوده السؤال المر فى أوقات الشدائد والأزمات : هل يعيد التاريخ نفسه ؟ ولا جدال أن «معرفة» التراث معرفة دقيقة و«استحضاره» ضرورة لا مفر منها للحاضر ، وفى مواجهة الإنسان لنفسه ، والحكمة الحقيقية من هذا كله - فيما يورد الدكتور مكاوى - أننا لم نسيطر بعد على مشكلة الطاغية ومأساة الطغيان فى تاريخنا القديم والحديث والمعاصر !!

*****